

● الفصل الثالث

رسائل «نظام الملك» وأماليه فى الحديث

بعض رسائل النظام، خلاصتها، موضوعها،
صلتها بكتابه - الوصايا - .
مجلساء فى الحديث: وصفهما والغاية
منهما، والفرق بينهما. أحاديث متفرقة.

obeikandi.com

أ- رسائله:

إن لـ«نظام الملك» - كما تدل النصوص التاريخية في أمهات المصادر العربية والفارسية - رسائل عديدة كانت تقتضيها ظروف حياته، فقد شغل منصب الوزارة لدولة السلاجقة وكان فيه وزيراً مفوضاً بل رأس الدولة المفكر، وقلمها المدبر طوال ثلاثين عاماً، فإذا شرّعت قاعدة جديدة استنير برأيه وإذا نظّم عهد أو صدر مرسوم فبمداد دواته، وثمة شيء آخر يفرض عليه تدوين الرسائل إلى أمراء الأقاليم وحكام الجهات المختلفة.. ذلك هو اعتماد السلطان عليه لبراعته في الإنشاء، ودقته في حسن الأداء فضلاً عما عرف به من دهاء سياسى، وبُعد نظر في معالجة المشكلات والتعبير عنها بلباقة الخبير المحنك، العارف بقواعد اللغة وأسرار بلاغتها.. ولو رجعنا إلى ما أشار إليه ابن الجوزى وسبطه وابن الأثير فحسب من ردود ومراسلات جرت بينه وبين دار الخلافة والمتصلين به من العلماء والموفدين إليه، ومنه إلى بغداد لعرفنا هذا العدد الوفير من الرسائل السياسية التي فقدت ولم نعثر إلاّ على النزر اليسير منها.

لقد كان «النظام» - كما يظهر من خلال سيرته - يواصل رسائله إلى دار الخلافة ليزودها بأحدث الأنباء عن الفتوح وهو برفقة السلطان: ففي سنة ٤٥٦هـ ورد كتاب منه يخبر فيه بأن السلطان ألب أرسلان بلغ مواضع لم تجر العادة في بلوغها وفتح بلاداً عظيمة وأنه سائر إلى فتح سائر بلاد الروم^(١). وفي ٤٦٥هـ أرسل خطاباً إلى الملك قاورد عندّ دعوته ضد السلطان - ملكشاه -

(١) السبط - مرآة الزمان - حوادث سنة ٤٥٦هـ - ورقة ٩٨.

مطالبًا بالعرش يقول عنه «الحسيني»: «إنه يحمل من المواعظ والنصائح ما يهدى إلى سبيل الرشاد ويوضح له السداد»^(١). . . وفي حوادث سنة ٤٦٨هـ ورد سعد الدولة الكوهرائي ببغداد وكان معه كتاب مختوم إلى الخليفة وظنّ فيه عزل «نظام الملك» للوزير ابن جهير ولما فضّ وجد فيه إنهاء عن بعض التصرفات فطابت نفس الوزير ثم جاءت الكتب بالإفراج عن إقطاع الخليفة التي منحت سنة ٤٦٦هـ لأمرأى التركمان^(٢). . . وفي عام ٤٧٥هـ وصل كتاب من «النظام» إلى مسلم بن قريش يعتب عليه لما سمعه عنه من مكاتبتة صاحب القلعة^(٣).

وخامس هذه الرسائل كان أرسلها إلى الوزير عميد الدولة بن فخر الدولة ولكن لم نعثر على شيء من تعابيرها أيضًا سوى ما أشار إليه السبط في عقب رسالة «النظام» إلى ابنه - فخر الدولة - فقال: «وذكر عتابًا طويلاً ممزوجًا بتهديد»، وكذلك كتب إلى عميد الدولة^(٤).

ومما وصل إلينا من رسائله رسالة حملها - كواهرين - شحنة العراق إلى الخليفة تتضمن الشكوى من بنى جهير وسأله عزل فخر الدولة من الوزارة^(٥)، ثم راسله بعد ذلك في إعادتهم بعد أن خرج إليه عميد الدولة إلى المعكر السلطاني واسترضاه^(٦). فجاء مضمونها: «إذا لم يكن أمير المؤمنين يرضاه في خدمته وقد انصرفوا عن حضرته وقصدونا ملتجئون إلينا، ومتجирون بنا، فلا بد من مقابلة ذلك بما يصلح أحوالهم ويحقق فينا ظنونهم»^(٧).

(١) أبو الفوارس الحسيني - أخبار الدولة السلجوقية.

(٢) السبط - مرآة الزمان - حوادث سنة ٤٦٨هـ.

(٣) المصدر السابق - حوادث سنة ٤٧٥هـ ورقة ١٧٦ ص ٥٦.

(٤) المصدر السابق - حوادث سنة ٤٦٩-٤٧٠هـ.

(٥) ابن الأثير - الكامل والسبط - حوادث سنة ٤٧٦هـ.

(٦) ابن الأثير - الكامل - حوادث سنة ٤٧١هـ، والسبط - حوادث سنة ٤٧٦هـ.

(٧) السبط - حوادث سنة ٤٧٦هـ ورقة ١٧٩.

ورسالة بعث بها إلى «فخر الدولة» ابن جهير وزير الخليفة المقتدى بأمر الله على إثر الفتن الدينية التي أثارها - أبو قصر القشيري - بين الحنابلة والشافعية في بغداد، وقد ضمنها امتعاضه مما جرى، والغضب لتسلط الحنابلة على غيرهم، وضرورة الحسم فيما يتعلق بمدرسة النظامية^(١).

وأخرى أرسلها إلى الأستاذ أبي إسحاق الشيرازي عميد النظامية ببغداد جواباً على بعض كتبه الصادرة في معنى الحنابلة وغيرها حينما اشتدت الفتنة وقتل من الناس عدد كبير حيث كوتب بذلك فجاءت مكاتبات منه بالجميل كما عبر عنها ابن الجوزي^(٢).

وبعد تتبّع وجهه وسفر إلى إيران صيف ١٩٥٢م كان مما اهتمت إليه بعض تلك الرسائل في ثنایا مجاميع قديمة مازالت مخطوطة في كبار المكتبات بطهران وطوس... واحتفظت بصور لكل نسخة منها... وظهر لى من خلال دراستها حقائق جديدة لاشك بأنها ستغيّر من أحكامنا على «نظام الملك» والأحداث التي جرت على يديه، أو كانت بإشارة منه في تلك الفترة التاريخية الشائكة. كما سترسم «للنظام» صورة تكشف عن شخصيته أكثر دقة وأشد وضوحاً.

ولسنا ندري ماذا تخبئ - تلك الخزانات المليئة بالمخطوطات الفارسية القيمة التي لم تفهرس بعد أو فُهرس بعضها ولم تطبع، أو طبعت ولم تترجم إلى العربية... وإذا ما أتيح لمكتبتنا الاطلاع فليس من شك بأنها ستلقى ضوءاً مجلياً على كثير من غوامض تاريخنا السياسى والأدبى والمذهبى مازالت مثار جدل وخلاف بين الباحثين.

وعلى الرغم من كل ذلك، وما لقيته المكتبة الإسلامية من كوارث طبيعية وسياسية ومذهبية أوشكت أن تمحوها من الوجود قد حفظت لنا الأقدار أو

(١) ابن الجوزي - المنتظم - حوادث سنة ٤٦٩هـ، والسط - حوادث نفس العام.

(٢) المنتظم - حوادث سنة ٤٧٠هـ.

المصادفات تراثاً ضخماً من مجموعة رسائل كتبها- النظام- فى مناسبات ولأغراض مختلفة. . وقد حاولت جاهداً أن أرتب مجموعة رسائله هذه ترتيباً زمنياً متعيّناً بتاريخ الأحداث والمواضيع التى تضممتها قدر المستطاع.

الرسالة رقم (١) :

من رسالة لابنه «فخر الملك» :

وفى مخطوطة فارسية قديمة أحتفظ بنسخة مصورة منها قدّم الناسخ ملخصاً لهذه الرسالة تحت عنوان «دستور الوزراء»^(١) ومهد لها بقوله :

فى عهد السلطان - ألب أرسلان - فوضت سلطنة فارس إلى معز الدين جلال الدولة ملكشاه، وأسندت وزارته إلى نظام الدين فخر الملك بن «نظام الملك» سنة ٤٦٠هـ. . فى ذلك العهد كتب الخواجه «نظام الملك» رسالة إلى ولده «فخر الملك» عند تسّلمه دست الوزارة لتكون دستوراً لسيرته فى الحياة. ولما كان كل وزير محتاجاً إليها اقتطفنا منها قدر الحاجة ما يلى :

قال الخواجه «نظام الملك» - الحسن بن على الطوسى - فى أول الرسالة : «فى الوقت الذى أمرنا فيه ولدنا الأعز أن يذهب إلى طوس كتبنا له كتاباً بخطنا وذكرنا فيه شروط ذلك العمل» .

ثم يسرد الناسخ مقتطفاته من الرسالة فى أربع صفحات من القطع المتوسط، فى ثناياها إرشادات عامة متفرقة وموجزة كأنها خلاصة لبعض موضوعات كتاب الوصايا، مما يدلنا على أنها والوصايا لشخص واحد بناء على وحدة المعنى والغاية فيهما معاً. أمّا الأفكار الجديدة التى تطرقت إليها فهى :

- ١- التوصية باحترام الخواجه العميد أبى سعيد المستوفى - البيهقى .
- ٢- العناية بدراسة العربية تكليماً وكتابةً، وإنشاءً وخطاً لأن من لا يعرفها ينتقصه أهل فارس لأن جلّهم من الفضلاء. . لذلك فقد أرسل إليه الأستاذ -

(١) مخطوطة باسم - تحفة بهائى - مؤرّخة فى سنة ٧٩٣هـ ومرقّمة.

انظر كذلك : ملحق رقم ٧ من البحث .

أبا المكارم ليتعلم عليه فى أوقات الفراغ من الأعمال الملوكية وأن يتكلم معه، وأن يتبادل له الرسائل بالعربية لتحصل له ملكة الإنشاء، كما أكد عليه بطلب الأستاذ - عبد الله الطهرانى - الخطاط المعروف ليتعلم عليه الخط .

٣- السعى إلى امتلاك ما يدرّ عليه وما يحتاجه من مصاريف يومية وأن يختار عددًا من المعتادين للمتاجرة له على أن يقرر لهم مبلغًا من المال، وأن تكون بضاعته على بغاله الخاصة به .

والرسالة - كما تدل بعض خصائصها - أنها أولى رسائله لابنه «فخر الملك» وكما أنها فى التربية والتهذيب والحثّ على التعلم والإقبال على المعرفة والتحلى بآداب السلوك لتحسن علاقته بالناس، وأنها وصلتنا مقتطفات منها اختارها الناسخ على قدر الحاجة كما روى لنا .

ولئن صدق الظن بأنها من الأصول لكتابه المعروف باسم «الوصايا»، فإنها ستحدد لنا بداية تأليفه الذى يحتمل بعض المؤرخين أنه أُلّفه فى أخريات أيامه، وعلى إثر اشتداد الأزمة بينه وبين السلطان وملله من منصب الوزارة، كما تدعم رأينا بأن مواده الأولى أعدت قبل هذا بأعوام .

الرسالتان رقمى (٢ ، ٣) :

رسالتان أخريان أثبتتهما المؤرخ الفارسى «سيف الدين عقىلى» فى كتابه المعروف «بآثار الوزراء» المخطوط حتى الآن^(١).

الأولى: كتبها «نظام الملك» إلى ولده «فخر الملك». (وهى غير السابقة).

والثانية: كتبها «نظام الملك» إلى ولده «مؤيد الملك».

ونحن - وإن وجدنا عند مقابلة هاتين الرسالتين ومقارنتهما وتشابههما فى بعض تعابيرهما ومحتوياتهما، ولكن الواقع الذى لا مرية فيه أنهما تختلفان فى إطارهما العام لاختلاف مناسباتهما وظروف كتابتهما، الأمر الذى لا يدع مجالاً للشك بأنهما رسالتان كتبتا لأسباب متنوعة كما كانا إلى شخصيات مختلفة .

(١) آثار الوزراء، والملحق رقم ٨، ٩ من البحث .

تحدث فى الأولى إلى ابنه «فخر الملك» كمن يريد إعدادة لمستقبل كبير فى الدولة، فهو يوصيه بالعمل الطيب لترتاح منه الرعايا ويقبلوا على كسب معاشهم فارغى البال، ويوصيه بقضاء حوائجهم وفتح بابه لحل مشاكلهم يوماً فى الأسبوع، وأن يتفقد خواصه وأمراء عسكره والشيوخ والموالى والأئمة وأن ينظر إليهم بعين الحرمة ويعينهم على أمور دنياهم، ويدعوهم إلى مائدته فى الأسبوع مرتين ويخلع عليهم فى النيروز والعيدى ويقبل شفاعتهم فيما هو ممكن وجائز... والاعتذار بالكتابة والآن يغفل الولاية فى النواحي فيلحق الرعايا حيف عظيم، ويصبح الفقراء معذبين مثقلين، وأن يضمن أمن الطرق للقوافل والقضاء على السرّاق وقاطعى الطرق ومن يهتك سمعة النساء، وأن يفتح دار الضرب ويعين عليها متولياً شديداً، وأن يكون وزن العيار أميناً وأن يراقب الباعة والدالين وأن يؤدب غلمانة ويصل من يستحق منهم، ويصلح بين الدهاقين، وأن يدعو الناس لصلاة الجمعة ويصلى الظهر فيهم فى الجامع، لتظهر بركة الخلافة على أحواله.

ولم يحرم ابنه - مؤيد الملك - من نصائحه فقد كان موضع رعاية بعد ولده الأكبر - فخر الملك - ولكنه لم يكن يتوسم فيه مشاركة فى وزارة يومئذ، كذلك لم يخف عليه مخاطرها فكانت رسالته إليه طرازاً آخر فى التوجيه والإرشاد، حرّضه فيها على التعلم وتهذيب النفس ووعظه فيها بحسن الاعتقاد، وهو الإيمان بوحداية الله وأبديته لأنه أساس الخير فى العالمين، ثم برسالة محمد وحب آله وصحبه، والآن يضمّر عداوة لأحد من المسلمين ويحترم العلماء لأنهم ورثة الأنبياء، ولاسيما المتسبون إلى شجرة النبوة.

ثم يضع منهجاً لحياته اليومية: فعليه أن يستيقظ مبكراً، وأن يؤدى فريضة الصلاة ويقرأ ورداً من القرآن، ثم يجلس إلى المتخصصين فى النحو والصرف والهندسة، والمنطق، والخط، ويستذكر من الشعر العربى والفارسى والرسائل والحكايات والأمثال ويقضى ساعة فى أول الليل للمباحثة.

ثم ينتقل به إلى نظرات خُلُقِيَّة فينبغي أن يعود لسانه على الصدق ويحفظه عن الغيبة والكذب - والوفاء بالعهود والكب بالعمل الشريف والحذر من التملقين والطمع في أملاك الناس وتجنب الظلم والحسد والتكلف، وأن يستمع لكلام العقلاء ويجالس أهل الصلاح حتى يصل إلى درجة الاستقلال إن شاء الله.

الرسالة رقم (٤) :

ورسالة أخرى كتبها «النظام» إلى الإمام أبي إسحاق الشيرازي ذكر موجزها ابن الجوزي في منتظمه^(١)، ومقتطفات منها آخرون، وأشار إليها فريق ثالث مما ثبت نسبتها إليه.. وذلك على إثر الفتنة التي أثارها «أبو نصر بن الإمام القشيري» عند مروره ببغداد للحج عام ٤٧٠هـ، والتي شغلت دار الخلافة وديوان السلطنة شهوراً وقتل بسببها عشرات من عوام الحنابلة والشوافع.

وهي رساله على صغرها، فإنها تدلنا على مقدار تجرد «النظام» من التحيزات العقائدية ومدى نزاهته عن التعصب الطائفي وكيفية نظرتة للخلافات المذهبية نظرة السياسى المتدين الذى يود التوازن بين الفرق المختلفة، وإن كان يميل ويعمل لرفع شأن طائفته، فهو يرد على الإمام الشيرازي تعصبه للشافعية وإطالته الخطاب لتأليب على الحنابلة، مع أن واجب السياسة والعدل يقضيان عدم التحيز إلى طائفة دون أخرى، وأنه من الأولى به إذاعة السنن لا إشاعة الفتن، وأنه لم يبن النظامية إلا تكريماً للعلم واحترافاً بأهله وليس لتفريق الكلمة واختلاف الأمة وإذا لم تسر الأمور وفق ما أورده فليس إلا التقدم بسدها.

ثم يثنى على ابن حنبل ويشيد بمركزه بين الأئمة وأنه ليس فى الاستطاعة دفع أتباعه عما اعتقدوه، ويختم رسالته بالأى يستمع الإمام إلى كل ما ينقل إليه، وألا يثيره كل ما يجرى أمامه، لأنه رجل سليم الصدر، سلس الانقياد، وعند - النظام - من تواتر كتبه ما يدل على سرعة تأثره.. والسلام.

(١) ابن الجوزى - المنتظم، وانظر: الملحق رقم ١٠ من هذا البحث.

الرسالة رقم (٥) :

وللدواعى نفسها التى كتبت بها رسالته السابقة فقد أرسل إلى الوزير «فخر الدولة» خطاباً أشار إليه المؤرخون، وأثبت مضمونه «سبط بن الجوزى» ذكر فيه ما بلغ سمعه من أنباء تجدد الفتنة، وحملته المسئولية فى وقوع المعارك الدامية واتهمه بالميل ضد الشافعية والعمل مع مناوئهم بدلاً من مؤازرتهم.. ثم يذكره بأنه إنما شيد لهم مدرسة لتكون مثوهم، وأن يحسم القول فيما يتصل بها، فإمّا إغلاقها وإمّا رعاية أبنائها لئلا يجرى على من يتفياً ظل عنايتى ويحاط بعين رعايتى ما يجرى، «ثم يتهم أصحاب» ابن حنبل بالانتحال وسوء الأفعال، وأنه برىء من ذميم طرائقهم وأقوالهم، وتجاسرهم على سب الأئمة وإيقاعهم فى علماء الأمة دون منع ولا معاقبة.. وأنه لم يغض الطرف عما يبدو منهم إلا ترفقاً أن يجرى فى جوار الخليفة وسدة الإمامة المكرمة ما يخلّ بلوازم الهيبة ويقلل جوانب التعظيم والرتبة. ويقول «السبط»: «إنه ختم رسالته بعد عتاب طويل ممزوج بالتهديد».. وكذلك كتب لابنه - عميد الدولة أبى منصور^(١).

الرسالة رقم (٦) :

وفى مخطوطة قديمة باسم «مجموعة منشآت أبو على حيدر»^(٢) عدة رسائل اعتمدها وعلّق بهامش صفحاتها، وذيل فى خاتمتها كثير من العلماء فى مختلف العصور، وعدّها بعضهم نموذجاً صحيحاً للنثر الفارسى حينذاك فضلاً عن كشفها لأمر كانت مجهولة لدى المؤرخين فى ذلك العصر.. وما يشبهه الناسخ فى هذه المجموعة:

أ - رسالة الخواجه «نظام الملك» إلى السلطان ملكشاه.

ب - جواب السلطان ملكشاه إلى الخواجه «نظام الملك».

(١) سبط بن الجوزى - مرآة الزمان - حوادث سنة ٤٦٦-٤٧٠هـ، وانظر: الملحق رقم ١١ من البحث.

(٢) كذلك فى مجموعة مكتبة ملى ملك تحت رقم ٤٥، وانظر: الملحق رقم ١٢ من البحث.

ومع العلم بأن الرسالتين معاً لم تتجاوزا ثلاث صفحات بالقطع المتوسط . .
فإن «النظام» يطلب فى رسالته من السلطان إعفاءه من الوزارة والسماح له
بالسفر إلى الحج ليقضى بقية عمره فى كنف بيت الله الهرام، ويقوم بواجب
الدعاء لدوام السلطنة إلى الأبد. أما السلطان فإنه يشيد بوزيره، ويشنى على
حسن تصرفه ويعترف له بأن راحة الرعايا واستقرار الأمور لم تحصل لولا
صواب تدبيره وصحة رأيه «ولم ينتظم نظام الملك بغيره. . . .»، ثم يشير
ملكشاه فى جوابه إلى أن التوجه الخسروى الملوكى لم يزل مصروفًا نحوه
ومقرونًا به، وهو سيقى كذلك مادام حيًا موجودًا. ثم يثنى فى نهاية رسالته
عن السفر إلى الحج مشيرًا إلى أن: «قضاء حاجات الناس من الفقراء العاجزين
بهمة الوزير تعادل حجات كثيرة».

ولم أعرف أحدًا من المؤرخين أشار إلى هذه الرسالة التى بسببها قد تأجل
مشروع حجّه إذ لم يقبل طلبه ليكون حرّ التصرف فى حضره وسفره، والتى
أشارت هذه الرسالة ولو من طرف خفى إلى رغبة «النظام» فى التخلّى عن
منصبه فى الوقت الذى تؤكد فيه تمسك السلطان به وعدم استغنائه عنه إلى هذا
الوقت وهو عام ٤٨٠هـ.

وبهذا تنتفى تلك الأسطورة التى تناقلها معظم المؤرخين من العرب والفرس
والتى تدعى: بأنه جاء إلى «النظام»، وهو على أهبة السفر للحجّ شخص بزى
صوفى وأوصل إليه رقعة مفادها: أنه رأى رسول الله ﷺ فى المنام وهو يقول
له: «امنح الخواجة من السفر وإلزمه البقاء إلى جنب السلطان التركى لقضاء
حاجات المظلومين». . فأذعن لأمر رسول الله ﷺ ولم يسافر.

والذى يلاحظ أن الرسالة الملكشاهية والرؤيا النبوية يتضمنان تعليلاً واحداً
لتأجيل فكرة السفر أو العزوف عنه.

* * *

ومن خلال هذا العرض الخاطف لرسائل «النظام» يتبين لنا أنها تتصل بوصايا من وجوه، كما تتصل بكتابه «السياسة» من وجوه أخرى، حتى ليظن القارئ أنها سلسلة ذات ثلاث حلقات يكمل أحدها الآخر فهو يورد القصة فى سياستامة كما يوردها فى الوصايا، ويورد الفكرة فى الاثنين معاً ويعيدها ولو بأسلوب آخر فى بعض رسائله كمسألة المرأة ومشكلة العطالة وقضية الألقاب^(١).

ومن المحتمل أن يكون «النظام» قد ضمّ بين رسائله لأبنائه تلك، وأضاف إليها خلاصة تجاربه وأحداثه الجديدة بآداب الوزارة، وواجب الوزراء واختصاصاتهم ولاسيما فى الفصل الأول وما تعرض له من مخاطر هذا المنصب ومساوئه وجعل منه كتيباً صغيراً قدّمه لابنه «فخر الملك»^(٢).

غير أننا لا نستطيع القول جازمين بأن هذه الرسائل هى الأصل الوحيد لكتاب - الوصايا - لأن غالبية ما يحتويه يختلف عما فيها كل الاختلاف، ولأن النقاط الفارقة تعبر عن تجارب ونظرات فى السياسة والاجتماع لا توجد كما بحثها فيه. . . ولأن شخصية الوزير النافذة تبرز بروزاً قوياً فى ثنايا فصوله، كما تشف بعض فقراته عن الأصدقاء الحزينة.

وسواءً صحّ ما احتملاه فى الحالتين: أولاً فإن وصول هذه الرسائل إلينا وما تضمنتها من آراء وتوصيات متشابهة لتدعم صحة نسبة الكتاب إلى «النظام»، كما تثبت صدق انتساب هذه الرسائل إليه ثانياً.

* * *

(١) انظر: سياستامة، والوصايا .

(٢) وهناك رسالتان لابنه فخر الملك وثالثه لابنه مؤيد الملك، ورابعة وخامسة بينه وبين السلطان ملكشاه بالفارسية وقد عربتها مع مقدمة ضافية لها. انظر: مجلة - معهد المخطوطات العربية المجلد السابع الجزء الثانى فى: جمادى الأولى ١٣٨١ هـ = نوفمبر ١٩٦١ م.

ب- أماليه في الحديث:

لقد كان أول ما عني به الملمون من تدوين هو جمع الحديث وتسجيله خشية ضياعه وخوفاً من الانتحال فيه . . ثم عنوا برواياته عندما طال السند وتوفي أكثر رجاله وألفوا في ذلك الكتب الضخام خلطوا فيها بين الصحيح والموضوع، حتى قيل بأن الأحاديث التاريخية صارت بعد قليل أساساً لما ألف من كتب السير والمغازي، بدليل وجوه الشبه الكثيرة في الأسلوب، وفي طريقة سرد الوقائع وحكايتها^(١). وربما صارت هذه أساساً لكتب التاريخ ولاسيما بعد حذف الأسانيد منها.

وكان مردّ عنايتهم في الحديث يرجع إلى ناحيتين: الأولى: لأنه يلقى ضوءاً على آي القرآن، فيفسر الغامض ويوضح المبهم والمتشابه من آياته ويفصل المجلل ويقيّد المطلق ويخصّص العام من بيناته. والثانية: لأنه يحتوى على أحكام أخر متممة لما جاء في الكتاب بالإضافة إلى أنه شريعة كاملة في مكارم الأخلاق والحثّ على البر والتعاون والتحلّى بأفضل الصفات.

ولم يدوّن الحديث في عصر النبوة كغيره من علوم العربية فنشأ عن هذا أن اصطنعت أحاديث كثيرة لأغراض سياسية ومذهبية مختلفة، وظهر الوضّاعون في الحديث كما ظهرت في الشعر. مثل «ابن أبي العوجاء» الذي قال: «لقد وضعت فيكم أربعة آلاف حديث أحرم فيها وأحلل»^(٢) وبهذا دخل السنة من الأحاديث المكذوبة ما صعب حصرها والتمييز بين الصادق والمتحل. ولهذا اهتم العلماء بتدوينها، ووضعوا قواعد التعديل والتجريح لنقد رجال السند ولكن دون اهتمام كبير في نقد الحديث نفسه، من حيث موضوعه ومعانيه وأسلوبه، وبذلك دخلت من الأحاديث الضعيفة ما لا يقل عن الصحيحة إن لم تزد عليها، وكان منها ما هو أقرب في دلالة إلى الأساطير منها إلى منطق العقل، وأصبحت مصادر الحديث من السعة بحيث لا تتناسب وعمر الرسول ولا تتفق ومنطق رسالته.

(١) أحمد أمين - فجر الإسلام ص ١٥٧ .

(٢) نفس المصدر ص ٢١١ .

وما أن طلع القرن الثاني للهجرة حتى بدأ شعور الخلفاء بميس الحاجة إلى تدوين الحديث يتضح سنة بعد أخرى فيشيرون على أعلام عصورهم بجمعه، ولعل ما فى الأحاديث من تأييد لمركز الخلافة وإطاعة الفئة الحاكمة من دواعى تنبّه الخلفاء لضرورة تدوينه كما كانت من دوافع الإضافة عليه. فتحدث - المنصور - بذلك إلى الإمام - مالك بن أنس - لينشر كتابه «الموطأ» فى الأمصار، وحدثه الرشيد فى أن يعلّقه فى الكعبة فممنعهما عن ذلك^(١).

ولم ينته هذا العصر حتى رأينا حلقات السماع والإملاء فى دور العلماء والمساجد وغيرهما تزدهم برجال الحديث تمليه وتدونه، وسمعنا برحلات هواة الحديث إلى بلد قصى من أجل السماع لحديث واحد يرويه معدّل على المسند إذ ابتدأ التعليم فى الإسلام تملية وتحديثاً، وكان الدرس فيهما لا يخلو من فوائد لغوية وأدبية وتاريخية، ومن أمثلة ذلك فى هذا العصر أمالى الشريف المرتضى، كما وضعوا لهما قواعد وأحكام يجب على المملّى والمتملّى اتباعها مثل: كتاب - أدب الإملاء والاستملاء لعبد الكريم بن محمد بن منصور السمعاني^(٢). وصار الحديث بفنونه التمهيدية الموضوع الذى شغل أذهان القوم وأقلامهم طوال القرن الثالث والرابع الهجريين وأصبح سبباً لايجاد فنون أخرى دعيت بعلوم الحديث كعلم الرجال ومصطلح الحديث ضمت إلى علوم القرآن المعروفة.. وصار الارتحال فى سبيل الاستماع على شيخ اشتهر بعلوّ سنده وصدقه من وسائل التعلّم المألوفة، فقد رحل «ابن ظاهر» من مصر لأجل - الفضل بن المحب - صاحب الخفاف، المتوفى سنة ٤٧٣هـ^(٣). ومن شدّ الرحال إلى بغداد فى طلب الحديث «أبو الوليد الباجى القرطبى» المتوفى سنة ٤٧٤هـ^(٤).

وسواءً أكان الحديث منتحلاً أم صحيحاً فلم يغيب على الحاكمين أثره فى

(١) طبقات ابن سعد.

(٢) وقد طبع فى أبريل - ليدن سنة ١٩٥٢م.

(٣) أبو القاسم الفضل بن عبد الله بن المحب النيسابورى. قال عنه ابن ظاهر: «إنه قرأ عليه فى أول مجلس جزءين من حديث السراج فلم يجد لذلك حلاوة، وأنه لم يمتنع عليه أو طالبه بشيء، وكل حديث من الجزءين يساوى رحلة»: (الذهبي - السير، مجلد ١١ ص ٤٦٣).

(٤) سمع ببغداد والموصل وعاد إلى الأندلس بعد ثلاثة عشر سنة، وصنّف وناظر ابن حزم فى مجالس كثيرة. (الذهبي - السير، مجلد ١١ ص ٥٣٩).

نفوس الناس، وربما كان هذا من دواعي وضعه كما ذكرنا آنفاً، لذلك فقد مُنع المحدثون والوعاظ من التحديث والوعظ، كما يمنع الخطباء والشعراء من إلقاء كلماتهم وقصائدهم أحياناً خشية من إثارتهم، فقد منع السلطان - محمود - الوعاظ غير أبي حاتم بعد دخوله الري وقتله الباطنية فيها، إذ كان لا يقدم شخص إلا ويعرض عليه اعتقاده^(١). وكذلك منعت الدولة الفاطمية - أبا إسحاق الحبال - المتوفى سنة ٤٨٢هـ من التحدث بجامع عمرو بن العاص، كما منعوا من الدخول عليه إلا بشرط عدم السماع عليه أو الإجازة منه^(٢).

وكان لعنايتهم بالحديث ظاهرة اهتمام أخرى تبدو لنا في تحرجهم من السماع على رجالات المذاهب المتطرفة، فكانوا يتخوفون من الرواية عن المعتزلة، كما يخشونها عن الباطنية فكان «ابن الأبنوسى» المتوفى سنة ٥٠٥هـ المحدث الصادق يقول: «كنت لا أسمع مدة من التنوخى لما أسمع من ميله إلى الاعتزال ثم سمعت منه»^(٣). وكذلك كان موقف علماء كل فرقة عن غيرها، فإذا تحدثوا عن ابن البناء البغدادي قالوا: «إنه نقل عن خمسمائة مصنف سنة ٥٧١هـ» مشاراً إليه في القراءات واللغة والحديث إلا أنه حنبلى المعتقد، وإذا ترجموا للعكبرى الأديب الإخبارى قالوا: «غير أنه كان يتشيع»^(٤).

«نظام الملك، المحدث»:

أما «النظام» فقد غمرته موجة الإقبال على الحديث والتهافت على دراسته وحفظه فكان ولوعاً به سماعاً ورواية - فقد سمعه بأصفهان من محمد بن على ابن مهر مزد الأديب، وأبى منصور شجاع بن على بن شجاع، وبنيسابور عن

(١) الذهبى - السير، ترجمة أبى اسماعيل الهروى الأنصارى.

(٢) المصدر السابق ص ٥١٨، ٥١٩.

(٣) المصدر السابق ج ١٢ ورقة ٦٤. هو أبو إسحاق إبراهيم بن سعيد بن عبد الله النعمان المغربى. قال الصدفى: «دخلت عليه فظننى مدسوساً عليه حتى بسطه وأعلمته أننى أندلسى فأجاز لى لفظاً. فقلت قَبِّحَ الله دولته أمانت السنة ورواية الآثار النبوية وأحيت الرفض والضلال وبث دعائهما فى النواحي، تغوى الناس ويدعونهم إلى نحلة الإسماعيلية وبهم ضلت جبلية الشام، فحمد الله على السلامة فى الدين».

(الذهبى - السير ج ١١ ورقة ٥١٨، ٥١٩).

(٤) الذهبى - السير، مجلد ١١ ص ٤٦٣ - ٤٧٠.

الأستاذ القشيري أبي القاسم، وفي بغداد من أبي الخطاب بن البيطار وغيره^(١). وروى عن أبي مسلم الأديب صاحب - المقرئ - وأبي سهل الحفص وإسماعيل بن حمدون، وبندار بن علي، وأحمد بن الحسن الأرموي، وأميرك العروضي، ويوسف الخطيب وقاضينا أحمد بن عبد الكريم الخطيب... إلى أن يقول ابن قاضي شهبة^(٢) نقلاً عن شيرويه في تاريخ همدان: وسمعت منه بقراءة أبي الفضل القومساني. وروى عنه جماعة منهم: أبو الفضل الأرموي، ومصعب بن عبد الرزاق الصيعمي، وعلي بن طواد الزينبي، وأبو محمد الحسن ابن منصور السمعاني وكان آخرهم أبو القاسم نصر بن نصر العكبري^(٣). وغير هؤلاء من الأعلام من استملى على «النظام» مثل: الشحامي النيسابوري^(٤)، ومنهم من سمع عليه مثل: شيرويه بن شهردار في اسفيدرود بار^(٥)، وأبو الفتح محمد بن أبي الحسن البسطامي^(٦)، والرماني الدامغاني بنيسابور^(٧)، والشيخ أبو الفتح الميصي^(٨)، وأبو القاسم القايني في أصبهان^(٩)، وأبو القاسم عبد الله بن علي بن إسحاق الطوسي^(١٠) أخو «النظام» في الري، وأبو محمد السهلوكي^(١١)، وأبو نصر الشجاعى السرخسي^(١٢) ببغداد، ثم أبو عبد الله الجوباني المتوفى سنة ٥٣٠ هـ.

-
- (١) السبكي - الطبقات ج ٣ ص ١١٥.
(٢) ابن قاضي شهبة - مناقب الإمام الشافعي وطبقات أصحابه ورقة ١٦٥.
(٣) المنتظم ج ٩ ص ٦٤-٦٨ - حوادث سنة ٤٨٥ هـ.
(٤) الذهبى - السير ج ١١ ص ٤٩٦.
(٥) السمعاني - الأنساب - مادة بسطام.
(٦) ياقوت - معجم البلدان - مادة «اسفيدرودبارز»، وطبقات الشافعية لابن الصلاح ورقة ٥٦.
(٧) السبكي - الطبقات ج ٤ ص ٤٦١.
(٨) المصدر السابق ج ٤ ص ٣١٦.
(٩) المصدر السابق ج ١ ص ٢٠٨.
(١٠) المصدر السابق ج ٣ ص ١٤٥.
(١١) هو محمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر، وفي الطبقات أبو الحسن: خطيب بسطام، مدينة بقومس وقاضيهما تفقه ببغداد عن الدبوسى. ولد سنة ٤٠٥ هـ وهكذا، وتوفى سنة ٥٣٦ هـ (المنتظم ج ١٠ ص ١٠٠ والسبكي ج ١ ص ١٨٣).
(١٢) هو محمد بن محمود بن الشجاع السرمرد. قدم من خراسان إلى بغداد وتفقه على أبي يعلى الدبوسى، وروى عنه ابن عساكر وابن السمعاني والطائى، وتوفى سنة ٥٣٤ هـ (السبكي - الطبقات ج ٤ ص ١٨٤).

وقد وصف لنا المعنيون بسيرته ومجلسه وهو وزير وكيف كان يجلس بعد صلاة الظهر لوعظ الناس ويقرأ بين يديه جزء من الحديث على شيخ كبير على الإسناد ويكرمه ويجلسه الى جنبه، ويكلّم الفقهاء فى المسائل ويقعد مطأطئ الرأس ويسمع جميع ما يجرى فى المجلس^(١).. وكان ممن عرفناه ممن يقرأ «لنظام» ويفيده الإمام المحدث أبو عبد الله السمرقندى^(٢).

ويورد لنا السمعاني قصة جرت فى إحدى مجالس الإملاء النظامية ذكرها بصدد شروط المتملى وألاً يكون بليداً مغفلاً. قال نقلاً عن شيخه بأصبهان: كنا فى مجلس «لنظام الملك» أبى على الحسن بن على بن إسحاق الوزير فأملى: «أف للدنيا الدنية، دار همّ وبلية». فقال المتملى، وهو سليمان بن إبراهيم الحافظ: «ونلية». فقليل له: «وبلية». فقال: «وغبلة». فقليل له: «وبلية». فقال: «وقلية». فضحك الجماعة. فقال «النظام»: «أتركوه»^(٣).

وكاد يتفق الذين ترجموا «لنظام» بأنه أملى مجالس عدة فى مدن مختلفة ومناسبات عديدة فحدث فى أصبهان والرى ومرو ونيسابور وبغداد فى جامع المهدي ومدرسته بالرصافة^(٤)، وليس من شك بصواب ذلك لأن السماعات التى مرّ ذكرها تدل على حقيقته.. ولهذا عدّه «عبد الغافر» فى كتابه - السياق - من رجال الطبقة الثالثة، وقال عنه: «سمع وأملى سنين»^(٥).

(١) ياقوت - معجم البلدان ج ٢ ص ١٣٩ - مادة «جويان» .

(٢) هو ابن المقرئ المحقق أحمد بن عمر بن أبى الأشعث الدمشقى المولد البغدادى الدار، سمع من الكثيرين فى بغداد ونيسابور ومرو وجرجان وأصبهان وحدث عن السلف وكتب الكثير، وكان يفهم ويروى مع الإتقان والتحرى والدين وسعة الأدب إذا قرأ وأغرب. مات سنة ٥١٦هـ. (الذهبي - السير ج ١٢ ورقة ١٠٨).

(٣) عبد الكريم بن محمد السمعاني - أدب الإملاء والاستملاء ص ٦٣ .

(٤) البكى - الطبقات ج ١ ص ١٤٠-١٤٥، والمتنظم ج ٩ ص ١٦٤-١٦٨، والكامل ج ١٠ ص ٨٤-٨٦، و«مرآة الزمان»، ورقة ٢٠٨ - حوادث سنة ٤٨٥هـ.

(٥) اعتمدنا فى هذا على مخطوطة «المتخب من سياق تاريخ نيسابور» لإبراهيم بن محمد بن الأزهري الشريفى ورقة ٥٥.

وكان لولعه بالسماع وتحقيق الروايات أنه لم يسمع بمقري إلا وأحضره إليه وقربه منه وأقرئ عليه. حكى أنه لم يعرف بوجود الشيخ العمر محمد بن أبي عمران المروزي آخر من روى صحيح البخاري عاليا في زمانه إلا وطلبه، وحمل إلى الوزير ليقرأ عليه فقرأ بعض الحديث ثم رمته البغلة فمات سنة ٤٧١هـ^(١).

ولشغفه بالحديث وتقديره لرواته كان يحضر مجالس المتحدثين ويستمع إليهم ويرتبط الفقراء منهم ويجري الأرزاق مشاهرة عليهم. فمن هؤلاء أبو القاسم المقرئ الضرير^(٢) فلم يصل «النظام» خبر تضلعه بالقراءات وكثرة الروايات حتى بعث ليقعد في المسجد للقراء، وأجرى عليه المرسوم، واستفادوا منه سنين إلى أن توفي بنيسابور. وأبو علي الوخشي، فلم يسمع «النظام» وهو ببلخ أن بقرية «وخش» شيخاً ذا رحلة ومعرفة حتى استدعاه وقرأوا عليه سنن داود وسمع منه فصدّره بمدرسته فيها إلى أن مات سنة ٤٧١هـ. ويحكى لنا أحد الرواة وقد سمعه يقول: «رحلت وقاسيت الذل والمشاق ورجعت إلى (وخش) وما عرف أحد قدرى فقلت: أموت ولا ينشر ذكرى ولا يترحم أحدٌ عليّ فسهّل الله ووفق (نظام الملك) حتى بنى هذه المدرسة وأجلنى فيها أحدث.. وبقيت بعقلان أياماً بلا أكل فقعدت بقرب خبّاز لأشم رائحة الخبز وأتقوى بها»^(٣). وأبو سعيد السجزي وكان قصير اليد فلم يسمع به «نظام الملك» حتى ارتبطه بناحية يبهق ثم بطوس للاستفادة منه ثم انتقل في آخر عمره إلى نيسابور إلى أن توفي فيها سنة ٤٧٧هـ^(٤).

(١) الذهبي - سير أعلام النبلاء ج ١١ ص ٤٦٤.

(٢) هو يوسف بن علي المغربي الهذلي، عالم بالقرآن، كثير الروايات، مقدم في النحو والصرف عارف بالملل (ممتخب السياق، ورقة ١٠٥).

(٣) هو الحسن بن علي بن جعفر البلخي الوخشي، وكان جوالاً في الأفاق رحل إلى العراق والشام والجلال والثغور وذكر الحفاظ وسمع منهم الكثير، ومن أساتذته الخطيب البغدادي (الذهبي - السير ج ١١ ص ١٥٦).

(٤) هو مسعود بن ناصر بن أبي زيد السجزي المحدث الرحّال، سمع الكثير وجمع فأوعى من شيوخ الخطيب وما كان في الحديثين أجود إتقاناً ولا أحسن ضبطاً منه (السياق ورقة ٩٢، والسير ج ١٢ ص ٥٣٧-٥٥٨).

مجلساً إماماً الحديث :

فلا غرابة - بعد أن تزود «النظام» بثقافة دينية واسعة، وعاش في عصر ازدهار بالمحدثين، بين ظهراني أعلامه حتى ولع بالحديث وشغف بروايته - فلا غرابة بعد هذا كله أن نعرف «النظام» حافظاً محدثاً كما عرفناه سياسياً موهوباً وأن يملأ على الناس عدة مجالس في الحديث، كما كتب في السياسة ونظم الإدارة وأصول الحكم، ولا عجب - إذن - أن رأينا - ابن الصلاح - في طبقاته يقول عنه: «سمع الحديث فأكثر وروى وأملى، وأملى بالعراق وخراسان وأصبهان وآران وسائر البلاد وحضر مجلسه الحفاظ وغيرهم. ورغبوا في السماع منه والرواية عنه»^(١). وكان يقول: «إنى أعلم أنى لست أهلاً لذلك، ولكن أريد أن أربط نفسى فى قطار النقلة لحديث رسول الله ﷺ»^(٢).

غير أنه لم يصل إلينا من مجالس إمامته الكثيرة التى أشار إليها معظم المؤرخين سوى اثنين: أولهما: وقد ألقاه فى نظاميته ببغداد عندما زارها لأول مرة وأعجب بطلبتها وأبدى استحسانه بها إلا أنه استصغرها. ويحدد لنا - العينى - مكان إلقائه وهو خزانة مكتبته^(٣) كما يعين لنا - سبط بن الجوزى - وغيره الشهر والعام اللذين ألقى مجلسه الأول فيهما، وهو المحرم من سنة ٤٨٠هـ.

أما الثانى: فلا بد أنه قد ألقاه فى العام نفسه حيث لم يكن فى زيارته الثانية لبغداد سنة ٤٨٤هـ ما يدل على طول مكثه وفراغ باله للإلقاء بمجالس الحديث كما لم نجد أحداً أشار لذلك، فضلاً عن النص الذى يؤرخ لهما على لسان الرواة فى مقدمة المجلسين، والذى يدلنا على أنه ألقى الأول فى مدرسته يوم الثلاثاء الثالث عشر من المحرم، والثانى فى جامع المهدي يوم الجمعة لثمان خلون من صفر من العام نفسه.

لقد احتوى المجلسان على أربعة وعشرين حديثاً وقد ضمّن المجلس الأول اثني عشر حديثاً^(٤)، والثانى مثله. وسلسل السند فى كل منها وأشار إلى من

(١) طبقات الشاذلية - اختصار النووى ورقة ٥٢.

(٢) ابن خلكان - الوفيات ج ١ ص ٣٩٥.

(٣) العينى - عقد الجمان - حوادث سنة ٤٧٩، ٤٨٠هـ ورقة ٣٩٤.

(٤) منها واحد ينتهى بالسماع عن عيَّنة، واثان ينتهيان بالرواية عن الإمام الشافعى.

أخرجها من رجال الصحاح والمسانيد كما ذيل كلا منها بأبيات رواها في الأول عن الشافعي، وفي الثاني عن عثمان تدل على تذوقه للشعر العربي وحسن الانتقاء مع ملاحظة المناسبة والمطابقة لما يقتضيه المقام مما يضعف الدعوى القائلة بعدم فهم «النظام» للشعر وتقديره للشعراء.

إن نظرة شاملة لما تضمنه هذان المجلسان من أحاديث تدلنا على أن «النظام» لم يكن يملئها ليربط نفسه في قطار نقلة الحديث عن الرسول ﷺ فحسب، وإنما اختارها من بين مئات الأحاديث ليحلّ بها مشكلات الساعة التي كانت مثار اختلاف ومعارك بين الطوائف الإسلامية، والتي كانت تقلق راحة الدولة وتشغل بال كبار الموظفين. وكان في اختياره ناجحاً إلى حد بعيد إن لم يكن موفقاً كل التوفيق إذ إنه في الوقت الذي كان يرمى من وراء إملائها إلى توحيد الصفوف ونبد أسباب الشقاق والنزاع، فإنها كانت دعوة رقيقة لعقيدته ودفاعاً هادئاً عن سياسته، وردّاً متزنّاً على الاتهامات التي قيلت في تعصبه وتحيّزه لمذهبه.

فقد أملى قى مجلسه الأول على طلبة النظامية وأساتذتها من الأحاديث ما يفيدهم في التشريع وآداب العبادات كالصلاة وفضل رواية الحديث والحثّ على الاستقامة، وطلب الحكمة والإيمان بالقضاء والقدر ويوم المحشر، ويغتنم الفرصة فيروى لهم حديث الرؤية لله تعالى التي هي من أسباب الخلاف بينهم وبين الحنابلة وأنه يكشف الحجاب لأهل الجنة فينظرون إليه تعالى ولم يكن شئ أحب إليهم من رؤيته.. ثم يختمه بسماع عن شاهد عيان مع الإمام الشافعي حينما دخل مصر، وكيف خاف أهلها لأنهم مالكية فقليل له: «يا أبا عبد الله لو خرجت وجلت للناس وسمعوا كلامك لرجعوا عن قول مالك فأطرق ساعة ثم رفع رأسه وأنشد أبياته الميمية المعروفة»^(١).

ولكنه انتقى لمجلسه الثاني في جامع المهدي أحاديث من لون آخر أملاها على الحاضرين وهم من الطبقات المختلفة بدأها في قيمة النفس وحرمة الروح وأن من أنفق روحه في سبيل الله نودي عليه في الجنة هذا خير، ثم يوصله بمكرمة

(١) انظر: الملحق رقم ١٣ من البحث.

لأبى بكر أول الخلفاء تدل على منزلته عند الله والرسول، ثم يلحقه بحديث للدلالة على فضل عمر، وثالث للدلالة على منزلة عثمان، ثم يرفعه برابع فى مقام «على» فى الإسلام وحمله الراية يوم القيامة كما حملها فى الدنيا، وبخامس فى دعوة النبى لهم جميعاً، وآخر فى حبه لأبناء على - الحسن والحسين - وأن من أحبهما كان مع الرسول يوم القيامة. ثم يأتى بحديث فضل زوجة النبى عائشة وصحابته وأن من سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.. ثم يورد حديثاً آخر فى أن الاختلاف بين أصحاب الرسول كاختلاف أضواء النجوم فمن أخذ بشئ مما هم عليه فهو على هدى.. وأن خلفاء الرسول إنما هم رواة أحاديثه وسننه، والذين يعلّمونها للناس.

ثم يختم مجلسه بمأثرة أخرى لأبى بكر وثانية لعمر ومثلها لعثمان، وكيف وجدوا بعد اغتياله ورقة فى صندوق له، كتب فى باطنها شهادته، وفى ظاهرها أربع أبيات فى الحث على غنى النفس عند الفاقة والصبر على المكاره عند الشدة، فإن مع العسر يسراً، وإن من لم يقاس الدهر لم يعرف الأسى^(١).

ولئن كنا لم نهتد إلى النسخة الأم من أمالى «النظام» التى خطت فى عهده وعليها إجازة منه فقد حالفنا التوفيق بالعثور على مجموعتين يحتويان على أجزاء فى الحديث والتفسير والأدب قيمة وبخطوط قديمة تعود الى أوائل القرن الثامن - ٧٢٢هـ - وعليها من إجازات السماع والقراءة المتسلسلة ما يعود الى العقد الرابع من القرن السادس، أى سنة ٥٣٦هـ عمن سمع من «النظام» مباشرة.. وفى كل هذا ما يطمئنا على سلامتها وضبطها وصحة نسبتها.

كانت المجموعتان من مخطوطات المكتبة الظاهرية بدمشق، وقد أرشدنى إليهما أستاذى المرحوم يحيى الخشاب فرجعت إليهما واحتفظت بنسختين منهما. وكانت المجموعة الأولى تحت رقم ١١٥ - حرف - ١ - حديث وتشتمل على خمسة عشر جزءاً فى الأمالى المتنوعة فى أولها - جزء فيه مجلس

(١) انظر: الملحق رقم ١٤ من البحث.

واحد من أمالي «نظام الملك» أبي علي الحسن بن علي بن إسحاق (رحمه الله).. رواية الشيخ الإمام أبي نصر أحمد بن محمد بن عبد القاهر الطوسي عنه، رواية ولد الإمام أبي محمد عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن عبد القاهر رواية الشيخ شمس الدين أبي القاسم عبد المحسن بن عبد الله بن أحمد ابن محمد بن عبد القاهر، رواية محمد بن أبي الفتح بن حسن النقاش الواسطي عنه. قرأه عليه إبراهيم بن أبي عبد الله بن أبي نصر الحلبي الشافعي عفا الله عنه.

وفي خاتمة سَمْع جميع هذا الجزء من أوله إلى آخره على الشيخ الصالح محمد بن أبي الفتح بن حسن النقاش الواسطي بحق سماعه عن شيوخه محمد ابن محمد بن أبي علي بن عمرو الحلبي بقراءة إبراهيم بن أبي عبد الله بن أبي نصر الحلبي الشافعي في يوم الجمعة رابع عشر رجب من سنة ثلاثة عشرة وستمئة بحلب المحروسة ثم تأتي السماعات متواصلة في الفترة ما قبل ذلك وما بعده^(١).

أما المجموعة الثانية فهي تحت رقم ٢٧٣ - حديث - وتشمل عدة أجزاء من الأمالي والتفسير والحديث واللغة كان ثانياً جزء فيه مجلسان من أمالي صاحب «نظام الملك» أبي علي الحسن بن علي بن إسحاق - رواية أبي القاسم نصر بن نصر بن علي بن يونس العكبري عنه، رواية أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن البنا عنه، رواية إسحاق ويعقوب ابني أبي بكر الطبري عنه سماعاً، رواية أبي أحمد إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الطبري عنها إجازة، رواية أبي محمد عبد الله بن محمد بن محمد البشاورى عنه إجازة، رواية أم هانئ مريم بنت علي بن عبد الرحمن الهورسي عنه سماعاً.

وفي نهاية الجزء: سمع جميع هذا الجزء المشتمل على مجلسين^(٢) من أمالي

(١) انظر: المجلس الأول في الملحق رقم ١٣ والسماعات عليه ٥٢٣.

(٢) وقد أعانني على تصوير هذين المجلسين زميل الدراسة الدكتور شكري فيصل الأمين العام لمجمع اللغة العربية بدمشق، كما نشرنا مع مقدمة ضافية بمجلة معهد المخطوطات العربية في الجزء الثاني من المجلد الخامس ١٣٧٩ هـ / ١٩٥٩ م، ص ٣٤٩ - ٣٧٨.

«نظام الملك» أبى على الحسن بن إسحاق الصاحب على الشيخة الأصيلية الحرة الكاتبة أم هانى مريم ابنة الشيخ نور الدين على بن القاضى تقى الدين عبد الرحمن الهورسى سبط القاضى فخر الدين القاينى بسماعها له على أبى محمد عبد الله بن محمد بن محمد البشاورى الملى . . إلى أن يقول: «وصحّ يوم السبت الثامن من شعبان المكرم عام ستة وستين وثمانمائة بمنزل المتمة بدرب ابن البابا فى القاهرة وأجازت»^(١). وقد اطلع على هذا الجزء - ابن حجر كما ورد فى معجمه^(٢).

ومّا يلفت النظر ويدل على أهمية تلك السماعات ليست عناية المحدثين ودقتهم فى متابعة رجال السند وتعيين الزمان والمكان الذى روى فيه الحديث والأشخاص الذين سمعوه للثبّت من صحته فقط، وإنما لدلائلها على أسماء الأماكن يومذاك وتحديد مواقعها، وبهذا يمكن الإفادة منها فى خطط المدن - طبوغرافية - الإسلامية فى تلك العصور.

ومن الطريف أن نعثر فى أثناء بحثنا كذلك على إجازة «النظام» بسمع إملاءاته منحها لجماعة من العلماء بناء على طلبهم وقد نقلها الرافعى المتوفى سنة ٦٢٣هـ فى كتابه^(٣) فقال بعد أن أثبت له ثلاثة أحاديث لم ترد فى مجلسيه السابقين . وكتب إليه: «إن رأى مولانا ولىّ النعم صدر الاسلام أتابك رضى أمير المؤمنين أن يجيز لأبى المظفر عبيد الله بن الإمام أبى بكر محمد بن ثابت الخجندى وأبى المطهر حامد بن رجاء المسعدانى ولابنيه أبى القاسم وأبى طاهر، ولأبى منصور محمد بن أحمد بن عبد المنعم بن ماشاذه جميع ما يصحّ من مسموعات من الأحاديث» . . فكتب تحته: أجزنا لهم أن يرووا عنا ما يصحّ عندهم من مسموعاتنا بعد الاحتياط فيها» . . وكتب: «الحسن بن على بن إسحاق».

(١) انظر: المجلس الثانى من الملحق رقم ١٤ والسماعات عليه ٥٣٢.

(٢) ابن حجر العسقلانى - المعجم المفهرس ورقة ١٦٥ نسخة دار الكتب المصرية.

(٣) الرافعى - التدوين فى أخبار قزوين ورقة ٧٧٥.

وتما بقي من أحاديث «للنظام» غير هذين المجلسين طائفة كبيرة تمثل بها فى كتابه «سياستنامه» فى مناسبات كثيرة وأخرى ذكرها - الرافعى - فى تدوينه . وثالثة أشار إليها غيره فى كتب السير خلال ترجمته . . ولما يقتضيه منهج البحث من وجوب إعداد وعرض آثار المترجم له ، فقد وجدت من النافع والضرورى معاً جمع تلك الأحاديث المتفرقة فى مجلس ثالث له ليتم بها بحثنا ، لأنها - فى أغلب الظن - تشمل معظم ما أملاه فى مجالسه المفقودة إن لم تكن جميعها ، إذ تصرّح بعض المصادر القريبة العهد من «النظام» أن - أحمد بن محمد بن أبى العباس الأصبهانى - خرج له الفوائد فى مجلدة ضخمة^(١) ولكنها ضاعت لا نعرف عنها شيئاً اليوم .

والذى يلاحظ على هذه المجموعة الثالثة من الأحاديث المتفرقة أن قسماً كبيراً منها مقطوع السند ، ولم يعتن راويها برجاله وأنها مختلفة الموضوع لاختلاف الأغراض والمناسبات التى استشهد بها ، وأن من بينها الحكم والأمثال وقد أوردهما بشكل أحاديث لعلها من إضافات النساخ^(٢) .

ج - المؤلف المفقود:

وما ذكره المؤرخون من آثار ثقافية نسبوها «للنظام» كتاب رحلته إلى بلاد ما وراء النهر وخراسان ، وقد أطلقوا عليه اسم - سفرنامه^(٣) - غير أننا مازلنا نجهل حقيقته ومصيره ، كما لم نجد له ذكراً فى أهمّ المصادر ومعظم الفهارس المطبوعة .

* * *

(١) المصدر السابق .

(٢) انظر: ملحق رقم ١٥ من البحث / المجلس الثالث / ٥٤١ .

(٣) محمد عبد الرزاق - كتاب «نظام الملك» ص ٧٢ ، ٧٣ .